الرفاق

بقلم : فخري قعوار

تقديم

محمد عبد الحليم عبد الله

ليس كاتب هذه القصة غريبا عني . قرأت له في مجلة « الأديب » مقالات وقصصا ، وعندما قرأت مقالاته حسبت أنه تجاوز دور الشباب الغض أو على الأقل أتم دراسته الجامعية .

لكنني حينما التقيت به في القاهرة تبينت فيه شابا حديث السن لعله في السابعة عشرة من العمر . وإذا كان هناك علاقة بين السن والتفكير فإن هناك أيضا تفاوتا بينهما فقد يبدو التفكير بالنسبة لسن معينة أشبه بالرداء الواسع نتيجة الموهبة والدرس وأخذ النفس بالشقة والجهد والعزوف — الى حد ما — عن اللهو الشهير في هذه المرحلة من العمر .

وربما عن لي أن أسأل نفسي : هل يستطيع هذا الشاب أن يكتب شعرا ؟!

أنا أعرف أن الشعر في البلاد العربية باستثناء مصر أسبق الفنون فهو قبل من القصة وله منشئون ومحبون . وإذا كنت قد عرفت فخري قعوار كاتب نقد وكاتب قصة فإني أرجح أن له بعضا من القصائد على النهج العمودي أو النهج الجديد .. هذا لا يهم . لكن الذي أريد أن أخلص اليه هو أن صاحب هذا القلم يعيش في احساس وجداني حي . يطلب التعبير الأدبي ويسعى اليه وينشد الصورة التي تلائم موقفه النفسي .

وهذه المرحلة يمر بها معظم الشبان . وتتراوح جودة أعمالهم في كل نوع أدبي بين الارتفاع والتوسط والانخفاض . ثم .. قد يسأل أحدهم نفسه أو غيره من الناس عن أجود ما كتب وعما ينبغي أن يتفرغ له .

غير أن الجواب ليس عند الناس بل عند الكاتب نفسه . انه سيهتدي الى وطنه الأدبي بعد أن يحوم حول كل الأوطان . سيهتدي بعد فترة ما من الوقت .. في يده خريطة « الوجدان الانساني » وسيفتش جاهدا حتى يحدد

وكاتب هذه القصة ـ مرة أخرى ـ لايزال فى هذا الدور . ربما اشتهر فى المستقبل ناقدا وربما اشتهر قصاصا . وعلى هذا الأساس فانى أبنى قيمة عمله الذى تقدمه مجلة القصة فى عدد الطلائع فليس هو بمستطيع أن يعتبر قصة « الرفاق » أحسن ماكتب . ولست أنا فى موقف مخالف لموقفه

ففى الأردن تتجسم مأساة العدوان على أرضنا السليبة . على فلسطين . تتجسم المأساة فى المعسكرات القريبة . وفى المدينة التى شطرت شطرين وفى عدة آلاف من عرب فلسطين لا تنسيهم الاقامة ولا العمل ولا كسب العيش مرارة ماحدث .

فكاتب هذه القصة اذن من شهود المأساة . وهو اذ يقدم هذا العمل فهو مثل رجل يحمل وثيقة . رأى السهر والدموع والتشرد والترقب لليوم المنتظر . والامل فى اكواخ الطين وفى أحضان الجبال . والبحث عن الوقود فى الفيافى والاطفال الذين يولدون على الرغم من كل ما حدث ...

وأنا حين هممت بقراءة هذه القصة كان همى أن التقط الغريب فيها. وليس معنى الغريب هنا هو النادر الحدوث . لكن معناه الطابع (البلدى) ذلك اللون الذى يميز قطعة من الوطن العربى عن قطعة أخرى . ذلك الذى يعادل اللهجة فى النطق ولو أن الحروف كلها عربية .

وقد بدا لاول وهلة فى شىء غير (الحادثة) لان الحادثة التى بنى القصاص عليها عمله تكاد تكون مألوفة فى الادب المصرى عندنا . ذلك المقاول الذى يسخر عمال البناء أو التراحيل لاجل مكاسبه . ذو الساعة الذهبية والكرش العظيمة .

لكن أشياء أخرى غير الحادثة واللغة جعلتنى أشم رائحة وطن القصة هى أنها اشبه ما تكون بقصيدة ... تترك فى النفس انطباعا غامضا محوره الهموم . وهؤلاء الرفاق الاربعة الذين لم أر فيهم ولو واحدا متمردا أو ثائرا شحنوا نفسى بالاسى .

وددت بعد أن قرأت القصة أن لو استطعت لهم شيئا . وربما يتبادر الى الذهن فى هذه اللحظة الكلمة المألوفة . كلمة (السلبية) لكننى لا أستطيع أن أطالب بأن يكون جميع الابطال هائجين .

« بعد دقائق كنا نجلس فى ضوء قنديل شحيح واللحن القديم الحزين يخرج من أعماق صديقى فتحى ونحن نستمع اليه فى صمت وخشوع ... حنجرته سكنت بالحزن ... »

وقد بدأ المؤلف قصته بما ختمها به بعد أن أرانا كيف يحول الظلم الطويل الشخص الى هيكل كأن مهمته فى الحياة ان يستمع الى الاحكام فقط ولا يد له فى شىء . وقد تجلى ذلك فى منظر هؤلاء اللاجئين وهم يستمعون الى الاسماء (المرفوضة) من فم المقاول ذى اليد الرصاء ... يد برصاء

وطعامهم فيها ... رمز بديع ... وعندما فرغوا من معرفة قدرهم هاموا عائدين ليروا غيرهم فى طريقهم اليه ...

هذه هى رائحة (البلد) التى فاحت فى قصة فخرى قعوار . وكان ممكنا جدا أن يلعب الكاتب بعواطفنا فى الموقف الذى أشرت اليه لكنه كان يسارع نحو نهاية القصة .

واعود مرة أخرى الى أبطال هذه القصة الحزانى المسلوبين . هل ساءنى اننى لم أجد فيهم متمردا ؟!

انهم فى هدوئهم المغلوب يعيشون على الامل . وربما أحس الكاتب أن الشخصيات الفذة أو الشخصيات (السطحية) فى أدب النكبة اصبحت أكثر من المطلوب فتلمس سبيلا آخر سبيل التأثير بالنموذج الحى . بالانسان الذى يعيش هناك . فهو يوحى الى القارىء العربى بما يجب أن يعمل كما تهبط فكرة فوارة على الرأس فى جو هادىء . هدوء يوحى بالثورة . وضائعون يضحكون وهم فى طريقهم الى المخيم ويتكلمون عن الطعام والنساء . احاديث كأنها بصقة معلقة تريد أن تنطلق الى وجه الظلم ... كابتسامة المهزوم التى تؤرق الظالم . لغة خفية تعارف عليها الانسان ومن خلال هدوء هذه النماذج تنبعث ثورة الناس .

اود أن اقرأ لكاتب هذه القصة قصصا اخرى تكون فى قوة ما قرأته له من مقالات باذن الله .

محمد عبد الحليم عبد الله

الرفاق

اللحن الحزين ينبعث رقيقا رتيبا من أعماق صديقى فتحى ، يترنم بلحن قديم كئيب ، وهو يغمر جسده بحزام قطن عتيق ، ويجلس على حافة السرير ، صوت صديقى يرتفع ويهبط ،وصديقى الآخر « عطية » يجلس على صفيحة سمن فارغة ، وأنا أجلس الى جانب فتحى ، كنا نستمع بصمت وخشوع تامين . حنجرة صديقى سكنت بالحزن ، وهى تقطر ألما وجمالا . لم أكن أتصور أن فى الحزن حلاوة وفى الألم روعة ، لم أكن اتصور هذا مطلقا . اجل .. ان ساعة حزن واحدة تساوى عشرات الدنانير من يد « البكرى » البرصاء المنتفخة ، كل يوم يعطى الواحد منا عشرين قرشا ، بعد اثنتى عشرة ساعة من العمل فى خلط الاسمنت مع فتات الحجارة ، ورفعه بالصفائح الى سطوح البنايات ، ورفع الحجارة الثقيلة الى جوار « المعلم عايش» المقرفص أبدا على جدران العمارات !! عشرون قرشا ماقيمتها ، ونحن الثلاثة مدمنون على التدخين ، فنشترى كل يوم علبة سجاير « لولو » بأربعة قروش ونصف ، ولسوء حظنا ايضا فنحن من « المدمنين » على تناول الطعام ، فنبتاع فى بعض الأيام شيئا من البندورة والعجل

والخبز ، وفي البعض الآخر منها بصلا أخضر واوقية زيتون وتمرا بقرشين ، وتكون مصادفةغريبة اذا اشترينا نصف كيلو برتقال أو تفاح كل اسبوعين ... شيء يدبحني ويمزقني عندما آكل شيئا من العنب ، أو تفاحة صفراء شاحبة ، أو برتقالة شمطاء ذابلة ، اذ أذكر كيف كان والدي يشحنه بسيارة النقل الكبيرة الى ميناء يافا ليصدر ، بعد أن تعاف نفوسنا أكله ، واذكر كيف كنا نلعب كرة القدم ـ وأنا لم أتجاوز التسعة أعوام ـ بتفاحة أو برتقالة ، وكلما تتهرأ واحدة نأتي بغيرها .. شيء يقلق ويدعو للجنون و...أف.. ان خواطري

تشط بي بعيدا .. بعيدا الى ما وراء ستة عشر عاما ، صور قديمة مهرورة لتلك الأيام مازال تعبر خاطري، فتجعل نفسي ترداد تهرؤا وتعيما ، وصور حديثة للبكرى تلح على ذهني ، تجعل عقلي يكفر بكل شيء ، بالحياة وبالقدر وبالناس جميعا .. صدقني انني غير ملام عندما أقول هذا، فقد ذهبنا صبيحة هذا اليوم للعمل كالعادة ، واشتغلنا بجلد وضراوة ـ بحكم العمل ـ انهكتنا، حتى العاشرة والنصف . واذا بسيارة البكري السوداء ، الكبيرة تقف الى جوارنا ، وهبط منها بكرشه المتدلف واوداجه المنتفخة ، ووقف ازاءنا ونحن نعمل ورمقه باطراف عيوننا ، فأخرج ساعته المدورة الكبيرة من صدريته ، والقى عليها نظرة سريعة ثم اعادها الى مكانها ، وعاد فمد يده الى جيب سترته الداخلية ، واخرج حزمة من الاوراق ، واخذ يفتش بينها الى أن اهتدى الى ورقة معينة ، فامسكها بيمناه البرصاء ،واعاد بقية الاوراق الى جيبه ، وقال بصوته الهادىء اسمعوا :

ـ اسمعوا .

وقف الجميع عن العمل ، وكفوا عن الحركة ، فصمتت المعاول والرفوش ، وقعدت الصنائع والقفف ، وتنفس «مسطرين»المعلم عارف الصعداء،وتدوبت العيون بين شفتي البكري ، برفقة الصاعقة بها .

قال :

ـ ستنتهي خدمات بعضكم هذا اليوم ..

أحسسنا بالضباب يتكثف ، ويتكثف أمام أعيننا ، وبقيود صلبة قطيعة تحيط بصدورنا .

وأكمل :

ـ لا لشيء .. الا لأن مصلحة العمل تقتضي هذا ..

بقي الضباب والقيود تكتم أنفاسنا . أضاف :

ـ والآن..هذه اسماء المرفوضين .. وضعنا أيدينا على قلوبنا ، في حين قال الرجل بتمهل وبطء :

ـ حمدي ..

فضرب هذا القفة المستكينة عند قدميه ، ووقف محاذاتنا .

ـ يوسف

واتجه بعصور وتقزز واصحين الى جانب زميله حمدي .

ـ فتحي ..

وشعرت بالضيق لرفض صديقي ، لكنني قلت في نفسي : «بسيطة .. مادام الرفض بعيدا عني » .

ـ عطية ..

وسار صديقي الآحرالي جانب زملائه؛ وهنا نطق باسمي ، فأحسست بالفضاء يضيق من حولي ، والارض تميد من تحت قدمي ، لكنني نفضت هذه الاحاسيس .. ؛ واتجهت بوجوم أخرس الى أصدقائي،فعركت يدي ببعضهما البعض، وأخرجت سيجارة من جيب قميصي ورحت أدخن . وبكل هدوء ووقار عقبني ، أعطى كلا منا عشرة قروش ، وقال :

ـ الله يعطيكم العافية ..

وحاول احد الزملاء أن يعترض،فاجاب الرجل بكل ثقة :

ـ مصلحة العمل فوق كل اعتبار ..

ورحنا نقطع الدرب الترابي القصير بأرجل تعبة كليلة ، والصمت ما يزال واقفا بيننا كالعملاق . ولما وصلنا الشارع العام ، وقف باص « المحطة » ، ونزل منه خمسة شباب بالبسة مهلهلة ، والتفت أحدهم الينا سائلا :

ـ اتعرفون ورشة البكري ؟

فاجابهم عطية بتهكم مرير ، مشيرا الى المكان :

ـ أظن انها هناك .. عند السيارة السوداء .. وقهقه عطية بصوت مجلجل

ـ بعد أن ذهب الشبان ـ قائلا :

ـ لتحيا مصلحة العمل !!

ـ وأضاف قائلا لفتحي :

ـ فرط الزواج القريب يا أبو الفتوح .. هه .. !

فاجابه فتحي عامرا :

ـ ليكن ما يكون . وانت .. سخيف كيف سنعطي نوال بائعة الترمس قرشا كل يوم ؟

فتدخلت وقلت :

ـ ستتشعر معه ولا شك .

وهنا قطعه عطية بحد مفتعل .

ـ أتعرفون ؟ .. ان نوال من الطف ما رايت في حياتي من فتيات ؟

فعلق زميلنا يوسف ، وهو ممسك بذراع حمدي :

ـ يبدو أنك عريق في معاشرة النساء ..

ـ فقهقه ـ مرة أخرى ـ بجلجلة ، وقال :

ـ فعلا .. هو هذا

وصمت فجأة ، وقال بتنهد :

ـ ايه .. أيام ..

وهنا جاء الباص العائد الى « المخيم » ، فركبنا به . لم تكن المسافة لتستغرق زمنا طويلا ، ففي الحادية عشرة والربع كنا في « أكواخنا » ! .. وقد ألحت أمي على أن تعرف سببا لمجيئي المبكر،فرفضت الاجابة ، وصحت بها ، فسكتت ، ويبدو أنها فهمت كل شيء . ورحت في نومة عميقة طويلة ، لم أصح منها الا عند ما جاء عطية يدعوني لقضاء السهرة معه عند فتحي .

بعد دقائق ، كنا نجلس في ضوء قنديل شحيح .. ، واللحن القديم الحزين يخرج من أعماق صديقي فتحي ، ونحن نستمع اليه بصمت وخشوع تامين . حنجرته سكبت بالحزن ، وهي تقطر ألما وجمالا . ولما توقف عن الغناء ليمسح دمعتين في عينيه، نظر كل واحد منا في عيون صديقيه نظرة طويلة متفائلة ، وكأننا نقول : لابد للحن الحزين أن ينتهي .

فخري قعوار
الاردن